

الوافي في الوفيات

أهذا الذي أطريتِ نعتاً فلم أكن ... وعيشكِ أنساه لدى يومٍ أُقبرُ ؟ .
فقلت : نعم لا شكَّ - غيَّرَ لونه ... سُرى الليلِ حتَّى نصَّه والتهجُّرُ .
لئن كان إيَّاه لقد حال بعدنا ... عن العهد والإنسانُ قد يتغيَّرُ .
رأتُ رجلاً أمَّماً إذا الشمس عارضتُ ... فيضحى وأمَّماً بالعشيِّ فيحضرُ .
أخا سفرٍ جوَّاب أرضٍ تقاذفتُ ... به فَلَواتُ فهو أشعثُ أغبرُ .
قليلُ على ظهر المطيَّةِ طلَّه ... سوى ما نفى عنه الرداءُ المحبِّرُ .
وأعجبَها من عيشها طلَّ غُرْفَةٍ ... وريَّانُ ملتفَّ الحقائقِ أخضرُ .
ووالٍ كفاها كلَّ شيءٍ يهملُها ... فليستُ لشيءٍ آخرَ الليلِ تسهرُ .
وليلة ذى دَوَّرانٍ جشَّمني السُّرى ... وقد يَجشمُ الهولَ المحبِّ المَغرَّرُ .
فبتُّ رقيباً للرفاق على شفاءٍ ... أراقبُ منهم من يطوف وأنظرُ .
إليهم متى يستأخذ النومُ فيهمُ ... ولي مجلسُ لولا اللُّبابةُ أوعرُ .
وباتتُ قَلَّوصي بالعراءِ ورجلُها ... لطارق ليلٍ أو لمن جاء مُعوِّرُ .
وبتُّ أناجي النفسَ : أين خباؤها ... وأنزى لما آتى من الأمرِ مصدرُ .
فدلَّ عليها النفسَ ريَّماً عرفتها ... به وهوى الحبِّ الذي كان يُمزجُ .
فلمَّما فقدتُ الصوتَ منهم وأُطفئتُ ... مصابيحُ شُدِّتْ بالعِشاءِ وأنورُ .
وغاب قُومَ يَدْرُ كنتُ أرجو غيوبه ... وروَّحَ رعيانُ ونوَّمَ سُمَّـرُ .
وخُفِّضَ عنِّي الصوتُ أقبلتُ مَشِيَّةً ال ... حُبابِ ورُكني خيفةَ القومِ أَرزُورُ .
فحيَّيتُ إذْ فاجأتها فتوهَّلتُ ... وكادتُ بمرجوعِ التحيَّةِ تَجهرُ .
فلمَّما كشفتُ الستَرَ قالتُ : فضحتني ... وأنتَ امرؤُ ميسورُ أمرُ أعسرُ .
أريتكَ إذْ هُنَّ أَلْمُ تخفُّ ... رقيباً وحولي من عدوِّك حُضَّـرُ .
فوالله ما أدري أتعجيل حاجةٍ ... سرتُ بك أم قد نام من كنتَ تحذرُ .
فقلتُ لها : بل قادني الشوق والهوى ... إليك وما نفسُ من الناسِ تشعرُ .
فقلتُ وقد لانتُ وأفرَّخَ روعُها ... كَلَّاكَ بحفظِ ربِّك المتكبِّرُ .
فأنتَ أبا الخطَّابِ غيرَ مُنازعٍ ... عليَّ أميرُ ما مكنتَ مؤمَّـرُ .
فيا لك من ليلٍ تقاصرَ دونه ... وما كان ليلى قبل ذلك يَـقصرُ .
ويا لك من ملهَى هناك ومجلسٍ ... لنا لم يكدره علينا مُكدِّرُ .
يمُجُّ ذكيَّ المسكِّ منها مُفَلَّجُ ... نقيَّ الثنايا ذو غروبٍ مؤشِّـرُ .

يرفُّ إِذَا تفتَّرُّ عنه كَأَزَّه ... حصى بَرَدٍ أَوْ أُقْحوانٌ مَنْوَّرٌ .
وترنو بعينيها إِلَيَّ كما رنا ... إِلَى ظبيةٍ وَسَطَ الخميلةِ جُوذَرٌ .
فلمَّا تقضَى الليلُ إِلَّا أَقْلَاهُ ... وكادت هوائي نجمه تتغوَّرٌ .
أشارتْ بِأَنَّ الحَيَّ قد حان منهمُ ... هبوبٌ ولكنْ موعِدٌ لك عَزْوَرٌ .
فما راعني إِلَّا منادٍ : تحمَّـلوا ... وقد لاح معروفٌ من الصبحِ أَشقرُّ .
فلمَّا رأتْ من قد تنوَّرَ منهمُ ... وأيقاظهم قالت : أشـرُّ كيف تأمُرُّ .
فقلت : أُناديهم فإمَّا أفوتهمُ ... وإمَّا ينالُ السيفُ ثأراً فيثأرُّ .
فقلت : أتحيقُ لما قال كاشحٌ ... علينا وتصديقُ لما كان يُؤثرُ .
فإنْ كان لا بدَّ منه فغيره ... من الأمرِ أدنى للخفاءِ وأسترُّ .
أقصُّ على أختيَّ بدء حديثنا ... وما ليَ من أن يعلمنا متأخَّرٌ .
لعلَّهما أن يبغيا لك مخرجاً ... وأن يرَّحبا سرباً بما كنتُ أحصَرُّ